



<< ●

منظور مالك بن نبي لتناول المشكلة التربوية في العالم الإسلامي

نحو تأهيل الإنسان المسلم لاستئناف وظيفته في التاريخ

د. عمر نقيب

أستاذ في المدرسة العليا للأساتذة
بوزريعة - الجزائر

onakib@yahoo.com

منظور مالك بن نبي لتناول المشكلة التربوية في العالم الإسلامي

نحو تأهيل الإنسان المسلم لاستئناف وظيفته في التاريخ

د. عمر نقيب

أستاذ في المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة الجزائر

الملخص: تميّزت أعمال مالك بن نبي الفكرية بمساهمته الجادة في صياغة رؤية منهجية متميزة لتناول المشكلة التربوية في العالم الإسلامي وعلاجها. إن هذا التميّز عن كثير من محاولات الإصلاح والنهوض والبناء في العالم الإسلامي برز بوضوح عندما أخذ أن مشكلات بلاد العرب والمسلمين تنتظم داخل مشكلة مركزية واحدة سمّاها المشكلة الإسلامية، وأن هذه المشكلة حضارية في طبيعتها وتربوية في جوهرها، وذلك بالنظر إلى مركزية العامل الإنساني فيها. وبناء على هذا، فقد اعتبر أن أية محاولة للتعاطي مع المشكلة الإسلامية خارج هذا المنظور لن تكون إلا شكلاً من أشكال تضييع الجهد والوقت والمال. بل إن تعثر مختلف محاولات استئصال العالم الإسلامي من وضعية التيه الحضاري المستديم إنما هو مؤشّر قويّ على أهمية مراعاة هذا المنظور وضرورته.

إنّ هذا المنظور المتميّز كان يستهدف ترقية ثقافة جديدة تكون بمثابة الأساس لبناء حضارة جديدة وفقاً لقانون السنن التي أودعها الخالق عزّ وجلّ في الأنفس والآفاق، بعيداً عن الحسابات الظرفية السياسية منها أو الفكرية أو الاجتماعية التي تتعامل مع المشكلة بناء على مبدأ التكيف (Accommodation) لا التكيف (Adaptation).

إنّ منظوراً هذه طبيعته، قد كان له من الأثر على الأوساط الفكرية الإسلامية ما جعل كثيراً من قيادات ومنظري حركات النهوض والإصلاح والبناء في العالم الإسلامي يعترف بتأثيره بمنظور مالك بن نبي المنهجي في تناول مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة في العالم الإسلامي، وتبنيّه له في خططه الإصلاحية على الرغم من أنّ البعض الآخر لم يصرّح بذلك وإن كان يستخدم أفكاره في مختلف طروحاته الفكرية عند تناول هذه

المشكلات بالدراسة والتحليل.

ومثال ذلك، الكتابات الصادرة عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي في أمريكا وبعض المثقفين الإيرانيين. أمّا هؤلاء الذين عبّروا علناً عن تأثرهم بمنظور مالك بن نبي المنهجي واستفادتهم منه فنذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، جودت السعيد وعمر عبيد حسنة من سوريا، وراشد الغنوشي من تونس، وحسن الترابي من السودان^(١) وغيرهم كثير.

إنّ هذا المنظور المتميّز يمكن اعتباره في نظر هذه الدراسة نقلة نوعية على طريق تأصيل مناهج الفكر في النظر والتناول، والتعاطي مع المشكلات صياغة وتحليلاً وتفسيراً وعلاجاً، والذي نعتبره في ذاته لبنة أساسية متميّزة وذات وزن خاص من لبنات مشروع إعادة تشكيل العقل المسلم من أجل تأهيله لاستئناف وظيفته الطبيعية في الحياة البشرية.

ولعلّ السر في هذا التميّز أيضاً أن مختلف محاولات النهوض والإصلاح والبناء التي سبقت محاولة مالك بن نبي أو تزامنت معها لم توفّق في قضية المنهج وما يتطلبه من الآليات الفكرية التي تساعد على الصياغة المنهجية الدقيقة لمشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة وفقاً لقانون السنن الذي أصّله العلامة عبد الرحمن بن خلدون في نظريته للدولة، وفرّعه مفكرنا مالك بن نبي وتوسّع فيه في نظريته للحضارة.

هذا التميّز في منهج التناول جعل مالك بن نبي سابقاً لزمانه، الأمر الذي جعل كثيرين من المهتمين بفكره الحضاري غير قادرين على الارتقاء إلى المستوى الفكري الذي دأب مالك بن نبي على طرح أفكاره الإصلاحية من خلاله، فوقع كثير منهم في التأويل غير الصحيح لفكره فأسيء نتيجة لذلك التعامل معه. في حين اعتبر بعض المفكرين الآخرين هذا التميّز عبقرية في النظر أورثته سبقاً لزمانه وتفوّقا على أترابه، الأمر الذي جعلهم يعتبرون أنّ فكر مالك بن نبي لا زال فكراً خاماً لم يُستثمر بعد، إذ الأصل في التعامل معه ليس الحطّ من شأنه وإبعاد القراء عنه بتشويبه وافتراء التهم الباطلة عليه، وإنّما تكثيف الجهود العلمية المنضبطة بالمنهجية العلمية المتخصصة للارتقاء إلى مستوى القدرة على الكشف عنه وتمكين الأمة من الاستفادة منه في فهم مشكلاتها فهماً سُنّياً، ومن ثمّ الاهتداء إلى سبل علاجها بما يساعدها على استئصال وراثات قرون التخلف والانحطاط واستئناف دورة حضارية جديدة تعيد للأمة موقعها الطبيعي في التاريخ كأمة قدوة وقيادة.

(١) زكي الميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، دار الصفوة، بيروت، لبنان، ١٩٩٢.

هذا الاتجاه يتزعمه بعض الباحثين على رأسهم وجيه كوثراني فيما نقله عنه زكي الميلاد في كتابه الموسوم «مالك بن نبي ومشكلات الحضارة»⁽²⁾.

في هذا السياق، تأتي هذه الدراسة من أجل تسليط الضوء على أهم مفاصل هذا المنظور المنهجي المتميز من خلال تناول القضايا الآتية:

المشكلة الإسلامية كمشكلة حضارة في طبيعتها.

المشكلة التربوية باعتبارها جوهر المشكلة الحضارية.

الإنسان المسلم المتخلف العامل المركزي في مشكلة الحضارة في العالم الإسلامي. "النقائص التي تعانيها النهضة الآن، يعود وزرها إلى ذلك الرجل الذي لم يكن في طليعة التاريخ".

الحضارة ظاهرة دورية.

الطبيعة الثقافية للدورة الحضارية أو مسألة الخصوصية الثقافية للأمة الإسلامية

المرحلة الحضارية التي تشهدها الأمة الإسلامية أو أهمية تحديد موقعنا في التاريخ.

الإنسان المسلم المتكامل الهدف المعياري للتربية أو النموذج التربوي المنشود.

تمهيد:

للعلم ركيزتان أساسيتان لا بد منهما حتى يكون العلم علماً: الموضوع والمنهج. فإذا غاب أحدهما أو كلاهما لم يكن ثمّة علم يذكر، وإنما هو كلام يقال أو يكتب ويُقرأ. من هنا، كان المنهج الذي يعتمد على التشخيص العلمي المحكم والدقيق هو صمام الأمان للتعامل السليم مع المشكلة، موضوع الدراسة، فهماً وتحليلاً وتفسيراً وعلاجاً. كما أنّ الخطأ في هذا المجال مدعاة لتمادي المرض وتوسّع مضاعفاته وظهور أعراض أخرى لم تكن لتُوجد لولا الفشل الذي حدث في التشخيص. وإذا كنّا بصدد التفكير في مواجهة مشكلة الإنسان، فإن نقطة الانطلاق في التعامل معه من أجل علاج مشكلاته تكون من الفهم الصحيح لطبيعة المشكلة وأسبابها وتداعياتها وآثارها؛ بل والأهم من ذلك القوانين التي تتحكم في الظاهرة بكلّيتها. وانطلاقاً من هذه الزاوية بالذات حمل مالك بن نبي همّ تبنيه طلائع المسلمين من علماء وحكّام ومفكرين إلى أهمية المنهج في التعاطي مع المشكلات التي تفرض نفسها على العالم الإسلامي منذ أن اكتملت دورة الحضارة الإسلامية وتوقّف العقل المسلم عن العطاء الفعّال المؤدّي إلى المساهمة

(٢) المرجع السابق.

في صناعة التاريخ أو على الأقل توجيهه ومحاولة استثماره بما يخدم المصالح العليا للأمة. ولهذا، فمن أهم ما ينبغي أن نستهل به هذه الدراسة هو الإشارة إلى ما جاء في كتاب شروط النهضة لمالك بن نبي وهو يشير إلى أهمية المنهج في تناول مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة في بلاد العرب والمسلمين. صحيح أنَّ الأسئلة التي واجهته، وهو يتأمل في طبيعة الأزمة الحضارية المستعصية، ألجَّته إلى العودة إلى التاريخ من أجل الإجابة عنها، كما ذكرت ذلك فوزية بريون^(٣)، غير أنَّه بسبب حساسيته المنهجية التي اكتسبها من تخصصه العلمي الدقيق، ألزم نفسه بصرامة منهجية غير عادية. ولهذا، فقد أكد أنَّ المنهج الصحيح في هذا المقام هو «المنهج الذي يتناول الحضارة لا على أنها سلسلة من الأحداث يعطينا التاريخ قصتها، بل ظاهرة يرشدنا التحليل إلى جوهرها، وربما يهدينا إلى قانونها أي، سنة الله فيها»^(٤).

إنَّ مسألة المنهج في التعامل مع المشكلات البحثية ليست وليدة التاريخ الحديث بل تمتد في أعماق تاريخ العلم والعلماء. ولعلَّ من أشهر علمائنا الذين أشاروا إلى هذه الظاهرة في تاريخ العلوم في تراثنا الإسلامي، علماء الشريعة الإسلامية، وبالتحديد علماء أصول الفقه، على سبيل المثال لا الحصر. ولعلَّ اهتمام علماء الأصول بهذه القضية إنما يرجع إلى كون التأصيل هو في الحقيقة ما يمكن تسميته عملية منهجية العقل لينضبط بقوانين العلم العاصمة من الانحراف عن النظر السليم فيما يواجهه من مشكلات بحثية. وهو من جهة أخرى، العلم الذي يقدم لنا القواعد المنهجية التي تنظّم عمل العقل بالشكل الذي يضمن الربط المنطقي بين جزئيات المسائل، وإرجاعها إلى كليّاتها كشكل من أشكال البناء المنهجي المنسجم للرؤى المتعلقة بالنظر في المشكلات البحثية المختلفة؛ إذ كما هو معلوم، لا يمكن النظر في الجزئيات إلا من خلال كليّاتها. وهذا هو المقصود بالنظرية في العلم، وهو عين ما دعا إليه مالك بن نبي بقوله المنوّه به أنفاً؛ لأنّه لا يمكن النظر في المشكلات البحثية إلا من خلال منظور فكري متكامل أو رؤية نسقية شمولية تفسّر الظاهرة وتجمع بين جزئياتها سواءً أكانت أسباباً أم أعراضاً أم آثاراً، لتضع كل جزئية في موقعها الصحيح من المشكلة، الأمر الذي يمكننا من النظر السليم في المشكلة فهما وتحليلاً وتفسيراً واستشرافاً لآفاق علاجها^(٥)، وهذا ما يُعرف في مناهج البحث العلمي بالمقاربة المنهجية (Methodological Approach).

(٣) فوزية بريون، مالك بن نبي، عصره وحياته ونظريته في الحضارة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ٢٠١٠، ص: ٢.

(٤) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: ٦٨.

(٥) عمر نقيب، سؤال المقاربة سؤال المقاربة في المشروع التربوي الوطني في البلاد العربية، مداخلة أقيمت في الملتقى الدولي الأول حول التربية في الوطن العربي، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، ٢٠١٣.

وبناء على ما سبق، فإنَّ المنظور المنهجي الذي تبناه مالك بن نبي في تناول مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة في بلاد العرب والمسلمين ينطوي على مجموعة من المحدِّدات (Parameters) التي تشكِّل باجتماعها مرتكزات المنهج عنده. وتتمثِّل هذه المحدِّدات في العناصر التي سوف نتناولها بالعرض والتحليل في هذه الدراسة، مع الإشارة إلى أنَّ ما سوف يتمُّ تناوله يمثل بعضاً من هذه المحدِّدات المنهجية اقتضت طبيعة الموضوع التركيز عليها دون غيرها.

المشكلة الإسلامية وطبيعتها الحضارية؛

حاول مالك بن نبي أن يلفت انتباه المسلمين إلى الحاجة إلى فهم صحيح لطبيعة المشكلات التي تواجهها في العالم الإسلامي، والتي تبدو في ظاهرها متنوعة ومختلفة ومتباينة. غير أنَّها في حقيقة أمرها ليست إلا أعراضاً لمشكلة مركزية هي الأصل لكل ما نعانیه من أزمات ومعضلات عَجَزْنَا إلى هذه الأيام عن علاجها. ولذلك، فلا مناص بالنسبة إليه من صياغة مجمل هذه المشكلات تحت إطار هذه المشكلة المركزية التي تمثِّل القاسم المشترك بينها جميعاً؛ بل الأصل الذي نتجت عنه. فهذه خطوة منهجية ضرورية تقتضيها طبيعة المنهج الذي ألزم مالك بن نبي به نفسه. ولقد سمَّى هذا القاسم المشترك الذي جمع تحته جميع مشكلات المسلمين المشكلة الإسلامية (The Islamic Problem)، فيقول إنَّه «... من الرجل المسلم المشكلة الإسلامية كلها»^(٦). ولهذا، فإنَّ مختلف المشكلات التي تناولها مالك بن نبي لم تكن متعلِّقة بقطر واحد من أقطار البلاد الإسلامية، وإن جاء الحديث عنها مرتبطاً عرضاً بهذا القطر أو ذاك. كما أنَّ هذه المشكلات، عند التمعُّن في طبيعتها، إنَّما هي مشكلات جزئية تمخَّضت عنها المشكلة المركزية أي المشكلة الإسلامية. والمقصود بالمشكلة الإسلامية في أدبيات مالك بن نبي أنَّنا نحن أُمَّة قد كانت لنا تجربة تاريخية رائدة أنجزنا من خلالها دورة حضارية متميِّزة، غير أنَّنا أكملنا هذه الدورة الحضارية، الأمر الذي اضطرَّنا إلى الخروج من التاريخ والدخول في عهد ما بعد الحضارة أي عهد التوقُّف الحضاري وبما له من تداعيات وإفرازات وآثار على جسم الأُمَّة بل على البشرية برمتها. ولعلَّ من أهم مظاهر هذا التوقُّف الحضاري عجز الإنسان المسلم عن العطاء بكل أنواعه، العلمي والروحي والأخلاقي.

ولعلَّ هذه الرؤية الحضارية السننية ليست إلا محاولة من مالك بن نبي لتمكين العقل المسلم من تجاوز العقلية الذرية العاجزة عن النظر الشمولي المتَّسق للمشكلات، كما العاجزة عن التمييز بين المشكلة وأسبابها وأعراضها وآثارها. فالتفكير المنهجي المنظَّم ذو الرؤية النسقية

(٦) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: ٨٢.

الشاملة هو الضامن للنظر السليم. كما أنَّ غيابه مدعاة للانحراف عن طبيعة المشكلة أو تحريف طبيعتها، الأمر الذي يجعل الناظر فيها مجانباً للنظر الصحيح للمشكلة واستشراف إمكانات علاجها.

ولذلك، فهذا الغياب هو الذي أنتج لدى المسلمين النظر السقيم أو الجزئي أو المجزأ لمشكلاتهم، ودفع قيادات محاولات النهوض و البناء ومنظريها، علماء وحكاماً، إلى قضاء عقود من تاريخ ما بعد الاستقلال في علاج أعراض المشكلات بدل المشكلات ذاتها، وفي زهول تام عن حقيقتها. فكان أن جنينا مزيداً من إهدار للأموال والجهود والأوقات؛ بل وأجيالاً كاملة لم تنعم بعدُ بثمرة الاستقلال كما كانت تتصورها أيام الاحتلال. ولعلَّ من أهم ما ردَّ مالك بن نبي إليه عجز المسلمين عن التناول المنهجي المحكم لمشكلاتهم فهماً وعلاجاً هو ما أصاب عقل مسلم ما بعد الموحدين من صفة الذرية (Atomism) من حيث أنها «طراز من طرز العقل الإنساني عامة عندما يقصر عن بلوغ درجة من التطور والنضج، أو عندما يفوتها فينزع إلى تجزئة مشكلات الحياة فيتناولها ذرة ذرة»^(٧)؛ إذ أصبح العقل المسلم بسبب ذلك يُظهر عجزاً تاماً عن الملمة أطراف المشكلات التي يواجهها وأعراضها وأسبابها وتداعياتها وآثارها، وعن «عَقْلَنَتِهَا» لِيَتِمَّكَّنَ بعد ذلك من فهمها فهماً يضع كل شيء في موضعه على شكل منظور منهجي متكامل (Integrated Methodological Approach) يستوعب طبيعة المشكلات وأبعادها وعواملها وآثارها، وكذا النظر في إمكانات علاجها؛ منظور متكامل ومتوازن، يكون في مستوى ضمان منطقية النظر إلى المشكلات وترتيبها وتصنيفها حسب أهميتها لِيَتِمَّ تناول كل على حدة بالشكل الذي يناسب طبيعة المشكلة ذاتها فلا يقع في التقديم أو التأخير، والتضخيم أو التقزيم، إلا إذا اقتضت ذلك طبيعة المنهج وشروط العمل به.

إنَّ مثل هذا المنظور ومن وجهة نظر هذه الدراسة، لمن شأنه تجاوز النظرة الجزئية التجزئية لمشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة في العالم الإسلامي. كما أنَّ من شأنه أيضاً تمكين الضمير المسلم من استرجاع إيمانه بمفهوم الأمة الواحدة عوضاً عن التشرذم الذي عانت منه الأمة الواحدة بعد دخولها في عهود الانحطاط والتخلف التي مهّدت لعهود الاستعمار الذي أكمل عملية التقطيع والتجزئة، ليس في الأوطان فقط بل تجاوز ذلك إلى الضمائر والعقول حتَّى أضحت الأمة الواحدة القوية المتماسكة المتمتعة والشاهدة على غيرها أمةً مشهوداً عليها، انشطرت إلى دويلات متناحرة ومماليك متقاطعة يتعاون بعضها على بعض استكمالاً لمهمة

(٧) المرجع السابق، ص: ١٧.

التآكل الداخلي بإشراف خارجي، بقصد منها أو بغير بقصد .

ولهذا، فإنّ أية محاولة للتعاطي مع مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة بمعزل عن هذه الحقيقة المتعلقة بقانون السنن، سوف يكون مآلها الفشل كما تؤكد لنا التجربة التاريخية في مرحلة ما بعد الاستقلال على ذلك. إنّ التطور التاريخي للعالم الإسلامي، وبلاد العرب بوجه خاص، وما أفرزه من فشل مختلف محاولات إخراج الأمة من حالة التيه والضياع الحضاري لدليل على الحاجة إلى المنظور الذي اقترحه مالك بن نبي⁽⁸⁾.

إنّ المنظور السنني الذي ينطلق من اعتبار التاريخ ظاهرة حضارة يقتضي منّا التفصيل في هذه المسألة لتوضيح المقصود من الطبيعة الحضارية للمشكلة الإسلامية. غير أنّ الضرورة المنهجية تضطرنا إلى تأجيل الحديث عنه إلى ما بعد تحليل البعد التربوي للمشكلة وموقع العامل الإنساني فيها.

المشكلة التربوية باعتبارها جوهر المشكلة الحضارية؛

من البديهيات في فكر مالك بن نبي أنّ «الإنسان هو الوحدة الأولى التي تكوّن المجتمع، فإذا تحرك تحرك معه التاريخ وإذا توقّف توقّف معه أيضا»⁽⁹⁾. والإنسان يأتي إلى هذه الحياة في حالة بدائية، والمجتمع هو الذي يتولّى تشكيله ليكيّفه طبقا لأهدافه الخاصة فيتلأهّل لأداء دوره في المجتمع والتاريخ. كما أنّ الإنسان هو العنصر الرئيس لأيّ مشروع لبناء الحضارة، فهو الأداة والهدف في آن واحد.

وتعدّ مشكلات التربية من أعقد المشكلات التي تواجه الدولة الحديثة، والسياسة التعليمية مرتبطة ارتباطا كليا بالسياسة العامة للدولة. ولهذا، فالأيديولوجية السياسية للدولة تتضمّن السياسة التربوية باعتبارها تمثّل الرؤية الكلية لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان في المستقبل. وهكذا، فإنّ المنظومة التربوية لهي من أهم الميادين التي تتبلور فيها إرادة الأمة وطموحاتها في التاريخ، أي إنّ التربية مرآة عاكسة لطموحات الأمة في التاريخ. ولهذا، فقد أضحت التربية تمثّل إحدى أخطر بؤر الصراع السياسي العالمي. ولعلّ الالتفات إلى تداعيات حادثة 11 سبتمبر 2011 يجعلنا نتأكد من هذه الفكرة؛ إذ أصبح الهمّ المركزي لخبراء الصراع في أمريكا ومن دار في فلكها هو إعادة النظر في مناهج التربية والتعليم في الدول التي ادّعت عليها أنّها هي التي صدرت لها الحادثة. ويتضح ذلك من خلال التأمّل في التدخلات الخارجية الرامية إلى تغيير المناهج التعليمية ومقاربات التدريس في كثير من الدول بدعوى مواكبة التغيّرات الحاصلة بفعل

(٨) مقابلة عبر البريد الإلكتروني مع كلّ من عمّار جيدل: ٢٠٠٠؛ محمد سعيد مولاي: ٢٠٠١.

(٩) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: ٧٥.

ثورة المعلومات وتكنولوجيا والإعلام والاتصال (I.C.T).

ولعل من أهم آثار هذا الوضع العالمي الجديد المسمّى "العولمة" على التربية في البلاد المتخلفة بوجه خاص، اشتداد الحملات الرامية إلى تغيير المناهج التعليمية في هذه البلاد، وبالتحديد في بلاد العرب والمسلمين. وقد أخذت هذه التدخلات أشكالاً صريحة في تقرير الكونجرس الأمريكي بعد هذه الحادثة. إذ منذ سبتمبر 2001 «تزايدت الضغوط على كثير من البلدان مركّزة على دور النظم التعليمية في إنتاج ما سمّته الإرهاب العالمي، وأنّ هذه المناهج التعليمية بيّنت تولّد نوازع العنف والاعتداء على الغير، فأصدرت فعلاً التقارير لتغيير المناهج التعليمية أو تعديلها بما ينسجم والتوجّهات الجديدة لفكرة عولمة التربية»⁽¹⁰⁾

في هذا السياق، تظهر الحاجة إلى بيان منظور مالك بن نبي في صياغة المشكلة التربوية في العالم الإسلامي باعتبارها، كما تفترض هذه الدراسة، جوهر المشكلة الحضارية. من هنا، نقول إنّ مالك بن نبي يعتبر الإنسان العامل المركزي في مشكلات الحضارة في العالم الإسلامي لأنّه يرى أنّه «من الرجل تتبع المشكلة الإسلامية بأكملها وخاصة في الجزائر»⁽¹¹⁾؛ وأنّنا -نحن المسلمين- «لا نواجهه تغيّراً في النظام السياسي، بل إنّ التغيّر يصيب الإنسان ذاته، الإنسان المتحضّر الذي فقد همّته المحضّرة، وليس من الصواب أن نبحث عن النظم، بل عن العوامل الإنسانية المتمثلة في عجز الناس عن تطبيق مواهبهم الخاصة على التراب والوقت. إنّ التركيب الأساسي نفسه قد تحلّل، فتحلّلت معه الحياة، وأخلت مكانها للحياة البدائية»⁽¹²⁾. وعلى الرغم من أنّ هذه الرؤية تمثّل النتيجة التي توصّل إليها مالك بن نبي من خلال دراسته التحليلية النقدية للتطور التاريخي لحضارة العالم الإسلامي، فإنّها تلخّص أيضاً صياغته للمشكلة التربوية كما تواجهنا في عالمنا الإسلامي الحديث والمعاصر. ولهذا، فهو يعتبر أنّ الإنسان المسلم المتخلّف، كما سوف نعرف ذلك لاحقاً، باعتباره إنساناً قد تحلّل تركيب شخصيته بعدما أكمل دورته الحضارية، هو الأصل في مختلف المشكلات التي تواجهنا في عالمنا الإسلامي. في حين نجد أنّ عدداً من الأطروحات التي أكّدت على كون المؤسسات السياسية⁽¹³⁾ هي الأصل في مشكلات العالم الإسلامي، لم تتعامل، حسب مالك بن نبي، مع جوهر المشكلة وحقيقتها

(١٠) حسن شحاتة، مداخل إلى تعليم المستقبل في الوطن العربي، الدار المصرية للكتاب، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٤، ص: ١٧٨. نقلاً من: مصطفى يوسف منصور، تحديات العولمة التربوية المتعلقة بالمدرسة وسبل مواجهتها، بحث مقدم إلى مؤتمر «الإسلام والتحديات المعاصرة» المنعقد بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية، ٢-٣/٤/٢٠٠٧م.

(١١) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: ٨٢.

(١٢) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: ٣٦.

(١٣) جمال الدين الأفغاني على سبيل المثال.

وإنّما مع أعراضها ومظاهرها بحكم أنّ الإنسان هو الذي أنتج مثل هذه المؤسسات الفاشلة عن أداء مهامها الاجتماعية في تنمية الحياة البشرية وترقيتها. ومن أجل تدعيم ما ذهب إليه، يؤكّد مالك بن نبي أنّ ما يسمّيه هو "إنسان ما بعد الموحّدين" هو «الذي خلف إنسان الحضارة الإسلامية، في أية صورة كان، باشا أو عالماً مزيفاً أو مثقفاً مزيفاً أو متسوِّلاً، يحمل في كيانه جميع الجراثيم التي سينتج عنها في فترات متفرّقة من التاريخ جميع المشاكل التي تعرّض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين»⁽¹⁴⁾.

ومن أجل توضيح هذه الفكرة تعرّض بالتحليل لمختلف مظاهر التخلّف التي تدل على تماري هذا النموذج التربوي الرديء في حياة المسلمين، ودلالة على تماري المشكلة إلى اليوم على الرغم من مضي عدّة عقود على جلاء الاستعمار من بلاد العرب والمسلمين، يقول موضحاً ذلك: إنّ «النقائص التي تعانيها النهضة الآن، يعود وزرها إلى ذلك الرجل الذي لم يكن في طليعة التاريخ، فنحن ندين له بموارثنا الاجتماعية، وبطرائقنا التقليدية التي جرينا عليها في نشاطنا الاجتماعي... لم يكف بأن بلغنا نفسه المريضة التي تخلّقت في جو يشيع فيه الإفلاس الخلقي والاجتماعي والفلسفي والسياسي، فبلغنا ذاته.. وهذا الوجه الكئيب ما زال حياً في جيلنا الحاضر، نصادفه في المظهر الرقيق الذي يميّز به فلاحنا الوديع القاعد، أو راعينا المترحّل، المتقشّف المضيف. كما نصادفه في المظهر الكاذب الذي يتخذه صاحب المليار نصف المتعلّم الذي انطبع في الظاهر بجميع أشكال الحياة الحديثة، فأكسبه مليار أبيه وشهادة البكالوريا مظهر الإنسان العصري، بينما تحمل أخلاقه وميوله وأفكاره صورة إنسان ما بعد الموحّدين»⁽¹⁵⁾.

ولهذا، فإنسان ما بعد الموحّدين المتخلّف هو في الحقيقة تجسيد للقابلية للاستعمار والوجه النموذجي للعهد الاستعماري والبهلوان الذي أسند إليه المستعمر القيام بدور المستعمر وهو أهل لأن يقوم بجميع الأدوار، وحتى لو اقتضاه الأمر أن يقوم بدور إمبراطور»⁽¹⁶⁾.

ويعترف مالك بن نبي أنّ المشكلة معقّدة وليست من السهولة كما يظن الكثير من المسلمين، وإنّما تتطلب جهداً استثنائياً لأنّ «معرفة إنسان الحضارة وإعداده أشقّ كثيراً من صنع محرّك أو ترويض قرد على استخدام رباط العنق»⁽¹⁷⁾. وأمام هذا الوضع المعقّد يعجب المرء من بعض السياسات التي تتّجه إلى اختزال المشكلة في بعض المشاريع «التموية» القائمة على النظرة

(١٤) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: ٣٧.

(١٥) المرجع السابق، ص: ٣٧.

(١٦) نفسه، ص: ٣٨.

(١٧) نفسه، ص: ٣٨.

الدُّرية التجزئية للمشكلة الحضارية في العالم الإسلامي والتي (هذه السياسات) ليست في واقع الأمر إلا تشويهاً لحقيقة المشكلة وانحرافاً بها عن طبيعتها مهما صلحت النوايا.

إنّ هذا الوضع المرَضِي المتأزّم لشخصية الإنسان المسلم لم يكتف بكونه ظاهرة فردية وإنما اتخذ في الحقيقة شكل ظاهرة اجتماعية طالت المجتمع برمّته، فأصبحت عقلية التخلف هي القاسم المشترك بين أفراد المجتمع وغدت سلوكاً جمعياً، بل أسلوب حياة يمارسه المجتمع. وأوّل ما يمكن للملاحظ أن يتوصّل إلى تسجيله في هذا المقام انهيار سلّم القيم الاجتماعية أو التراتب الاجتماعي الذي يحدّد لكل فرد كلاً من دوره الاجتماعي (Social Role) وموقعه الاجتماعي (Social Status) وطبيعة العلاقات الاجتماعية (Social Relations) التي تربطه بغيره من الأفراد لتكتمل بذلك شبكة العلاقات الاجتماعية (Social Web of Relations) باعتبارها العمل التاريخي الأوّل الذي يقوم به مجتمع ساعة ميلاده. وهذا الانهيار إنّما هو في الحقيقة تعبير عن الخلل الذي أصاب المنظومة الثقافية للمجتمع باعتبارها هي التي تحدد شبكة العلاقات الاجتماعية أو القانون الأخلاقي الذي يضبط القضايا الثلاث السابق ذكرها والتي هي الأصل في بناء المجتمع المتحضّر والمؤهّل لأداء وظيفته التاريخية بامتياز.

ومن هنا، فإذا كان الدور الاجتماعي هو الذي يحدّد نوعية الخدمة التي يمكن أن يقدمها الفرد للمجتمع انطلاقاً من المؤهلات الفكرية والنفسية الفطرية والمكتسبة التي يتمتع بها، فإنّ الموقع الاجتماعي يتوقّف بدوره على نوعية الدور الاجتماعي وأهميته. فهذا هو الذي يحدّده وليس العكس. فالموقع إنّما يتحدّد بنوعية الوظيفة التي يقوم بها الفرد وبالمصالح التي يستفيد منها المجتمع من توفير هذه الوظيفة؛ إذ «يعظم الأجر بعظم المصلحة»⁽¹⁸⁾. وإلاّ فلا معنى للاستمرار المادي للمجتمع. فالأمة الإسلامية دخلت عهد الانحطاط والتخلف في الوقت الذي كانت تمتلك فيه أكبر المكتبات العالمية وليس العلماء. إنّ القضية إذن ليست متعلقة فقط بقلة العلم، كما يبدو، بل بنوعيته وكيفية توظيفه في إعداد وإنجاز وتقييم وتقويم المشاريع التاريخية الكبرى التي تخدم طموحات الأمة في النهوض من الكبوة التاريخية واستئناف الدورة الحضارية وتحقيق معاني الشهود الحضاري على الأمم الأخرى. وأمّا العلاقات الاجتماعية، فإنّ استقامة كل من الدور والموقع يجعل الثالثة من باب تحصيل الحاصل. فالعلاقة الاجتماعية تكون مثمرة إذا كانت مبنية على أساس احترام سلّم التراتب الاجتماعي (Values System) حيث نجد كلّ فرد في الموقع الاجتماعي الذي ينبغي أن يكون فيه، ويؤدّي من خلاله الخدمة التي تناسب ما سبق أن أشرنا إليه من مؤهلات فطرية ومكتسبة يتمتّع بها. والسبب في ذلك هو أنّ الإنسان

(١٨) أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، المجلد الثاني: كتاب المقاصد، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٢، ص: ٢٩٧.

يكون في أقصى حالات القدرة على العطاء وذروة تفاعله مع المهام الاجتماعية الموكلة إليه من قِبَل المجتمع إذا كان الدور الذي يقوم به منسجماً مع هذه المؤهلات. هذا، إذا علمنا أن النجاح في أداء الأعمال إنما يتوقف على شرطين هما الرغبة أولاً والقدرة ثانياً⁽¹⁹⁾.

ولعلّ هذا هو الذي دفع الإمام الشاطبي إلى اعتبار الفروض الكفائية فروض عين على مَنْ فيه الأهلية للقيام بها؛ ويتأكد الأمر أكثر إذا تعيّن عليه بأن لا يوجد غيره للاستجابة لمطالب هذه الوظيفة أي، تحقيق المصالح الاجتماعية المتوخاة منها للبلاد والعباد⁽²⁰⁾؛ إذ يقول في هذا السياق إنّ «طلب الكفاية متوجّه على الجميع. لكن إذا قام به البعض سقط عن الباقيين. غير أنّ الطلب -هنا- وارد على البعض، ولا على البعض كيفما كان، ولكن على من فيه أهلية القيام بذلك الفعل المطلوب لا على الجميع عموماً... ولما كان القيام بذلك الفرض قياماً بمصلحة عامة، فالجميع مطلوبون بسدّها على الجملة. فبعضهم هو قادر عليها مباشرة، وذلك من كان أهلاً لها، والباقيون -وإن لم يقدرُوا عليها- قادرون على إقامة القادرين عليها. فالقادر مطلوب بإقامة الفرض، وغير القادر مطلوب بتقديم ذلك القادر، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»⁽²¹⁾

وبناءً على الاعتبارات السابقة التي ساقها مالك بن نبي محاولةً لصياغة المشكلة التربوية عندنا، ومظاهرها وتجلياتها، فإنّه يعتدّ أن نقطة الانطلاق لاستئناف دورة حضارية جديدة تكمن في إعادة الصياغة التربوية لشخصية الإنسان المسلم لتمكينه من الانتقال من وضعية الإنسان المتخلف، بكل ما يحمل هذا المفهوم من أسباب وآثار، إلى وضعية الإنسان المتحضّر الذي يتمتّع بمؤهلات الأداء الناجح لوظيفته في التاريخ. «فحاجتنا الأولى هي الإنسان الجديد، الإنسان المتحضّر، الإنسان الذي يعود إلى التاريخ الذي خرجت منه حضارتنا»⁽²²⁾. ويكون من أهم أهداف هذه العملية التربوية استتصال الوراثة النفسية والفكرية والاجتماعية السلبية التي أسقطت المجتمع المسلم منذ ستة قرون، وتجديد كيان الإنسان المسلم طبقاً للتعاليم

(١٩) أنظر لتفصيل هذه الفكرة: جودت السعيد، العمل قدرة وإرادة، سلسلة أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع، مطبعة زيد بن ثابت الأنصاري، دمشق، الجمهورية السورية، ١٩٨٤.

(٢٠) أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، المجلد الأول، باب الأحكام، والمجلد الرابع، باب أحكام السؤال والجواب، مرجع سابق.

(٢١) المرجع السابق، ص: ١٧٦-١٧٨.

(٢٢) مالك بن نبي، تأملات، ص: ١٩٠.

الإسلامية الحقّة ومناهج العلم الحديثة⁽²³⁾، وإلاّ فإنّ سعيه إلى توازن جديد لحياته وتركيب جديد لتاريخه واستئناف جديد لدورته الحضارية سيكون باطلاً عديم الجدوى⁽²⁴⁾. ولهذا، فإنّ أية محاولة للإصلاح عندنا لن تكون سوى مزيد من إهدار الجهد والمال والثروة والوقت إذا لم تقم على أساس مراعاة هذه الحقيقة، مشكلة إعادة الصياغة التربوية لشخصية الإنسان المسلم بالشكل الذي بيّناه. هذه العملية التي ينبغي أن تستهدف أساساً «إقدار النفس على تجاوز وضعها المألوف»⁽²⁵⁾، أي الوضع النفسي والفكري والأخلاقي الذي ورثته من عهود الانحطاط والتخلف لما بعد الموحّدين. وبعبارة أخرى، تجاوز وضعية العجز عن التغلّب على العقبات النفسية والعادات السلبية في التفكير والتصرف الموروثة من منظومات تربوية تراكمت فيها قرون متعددة من الإفلاس والفشل والتوقف الحضاري جعلت المسلم لا يتحرّج من وضعية المتفرّج على التاريخ بدلاً من دور الفاعل الذي يصنع التاريخ ويوجّهه. ومن وجهة نظر نفسية وبداعوجية، يتمّ تحقيق هذا المسعى من خلال ما أشار إليه مالك بن نبي في معرض التمييز بين مصطلحي الفرد والشخص فقال إنّ «العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغيّر الفرد من كونه فرداً إلى أن يصبح شخصاً وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع»⁽²⁶⁾.

ولهذا، فإنّ الإنسان المسلم المتجدّد (The Renovated Muslim Man) أصبح في نظر مالك بن نبي، ضرورة لا مناص من تحقيقها في واقعنا التاريخي؛ «فالمسألة يجب أولاً أن نصنّع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى»⁽²⁷⁾، وذلك باعتبار أنّ الأصل أنّه لا اختيار للمسلم المعاصر في الحاجة إلى إعادة الدخول في مسرح التاريخ⁽²⁸⁾، واستئناف دورة حضارية إسلامية جديدة بالنظر إلى وضعية العالم المتأزّمة من النواحي الإنسانية على وجه الخصوص إذ يشهد إفلاساً في القيم لم يعرفه التاريخ البشري من قبل بسبب سيادة منطق القوة بدل قوة المنطق. إنّ التجديد التربوي الذي يدعو إليه مالك بن نبي إنما هو الذي يتمكّن فيه الإنسان المسلم من ممارسة وظيفته التاريخية ممارسةً إيجابية تكون في مستوى الاستجابة إلى نداء الفطرة البشرية المستغيث في كل مكان جرّاء الانحراف

(٢٣) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: ٣٦.

(٢٤) المرجع السابق، ص: ٣٧-٣٨.

(٢٥) المرجع السابق، ص: ٥٤.

(٢٦) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: ٣١.

(٢٧) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: ٨٢.

(٢٨) مالك بن نبي، تأملات، ص: ١٠٠.

عن الهدى الربّاني المنزل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام⁽²⁹⁾.

الإنسان المسلم المتخلف:

العامل المركزي في مشكلة الحضارة في العالم الإسلامي.

كما سبقت الإشارة إلى ذلك، حمل مالك بن نبي همّ تنبيه طلائع المسلمين من علماء وحكّام إلى أهمية المنهج في التعاطي مع المشكلات التي تفرض نفسها على العالم الإسلامي منذ أن اكتملت دورته الحضارية وتوقّف العقل المسلم عن العطاء الفعّال المؤدّي إلى المساهمة في صناعة التاريخ، أو على الأقل توجيهه ومحاولة الاستفادة منه أو الاستثمار فيه.

وإذا كان مالك بن نبي ألحّ على أنّ المشكلة الإسلامية هي الأصل الذي تمخّض عن كل مشكلات المسلمين، وأنّ طبيعة هذه المشكلة حضارية باعتبار أنّها تعبير عن اكتمال الدورة الحضارية الإسلامية التي تخضع كما هو معلوم لقانون السنن، فإنّ جوهر هذه المشكلة هو «التغيّر الذي أصاب الإنسان المسلم الذي فقد همّته المحضّرة فأعجزه فقدها عن التمثّل والإبداع...»⁽³⁰⁾، ممّا يؤكّد أن منطلق التفكير في مشكلات المسلمين هو الإنسان المسلم المتخلف باعتباره «عنصراً جوهرياً في ما يضمّ العالم الإسلامي من مشكلات منذ أقول حضارته، وهو عنصر لا ينبغي أن يغيب عن أنظارنا عندما ندرس نشأة المشكلات وحلولها التي تشغل اليوم فيما يبدو الضمير الإسلامي»⁽³¹⁾.

و«طالما ظلّ المجتمع الإسلامي عاجزاً عن إدراك هذه الحقيقة كما عن الشروع في تصفية الوراثة السلبية لإنسان ما بعد الموحّدين، النفسية منها والاجتماعية والتي أسقطته منذ قرون، ومادام متعاسياً عن تجديد كيان الإنسان طبقاً للتعاليم الإسلامية ومناهج العلم الحديثة فإنّ سعيه إلى توازن جديد لحياته وتركيب جديد لتاريخه، سيكون باطلاً عديم الجدوى»⁽³²⁾

وهكذا يبدو واضحاً أنّ مالك بن نبي يرى في ضابط الواقعية في النظر إلى نموذج الإنسان الذي نريد أن نجعله الأداة الأساسية لمشروع البناء أمراً حاسماً لا مناص منه؛ إذ ينبغي أن ننظر إليه كما هو في الواقع الفعلي باعتباره مرآة عاكسة للمرحلة التاريخية التي يشهدها

(٢٩) مالك بن نبي، المسلم ومشكلة الإنسان المعاصر. ٢٠٠٥. مقال مخطوط نُشر في موقع الشهاب للإعلام بتاريخ ٢٨ يوليو ٢٠٠٥. <http://www.chihab.net>

(٣٠) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي:

(٣١) المرجع السابق، ص: ٢٨.

(٣٢) المرجع السابق، ص: ٣٦.

المجتمع في إطار دورة الحضارة، لا كما نتصوره نظريا في المشروع، أعني الإنسان الحقيقي وليس الافتراضي. فالعلم في الحقيقة ينطلق من الواقع، بل هو بالأحرى مشروع متكامل لتغيير الواقع ينطلق منه ليغيّره نحو الأفضل؛ وكيف نغيّر الواقع إذا لم نعترف له بما هو فيه ولم ننطلق منه لنباشر عملية تغييره. ولهذا، فالأصل أن نقطة الانطلاق هي الاعتراف بأن الإنسان المسلم الذي نريد أن نتعامل معه ونحن على طريق إنجاز مشروع البناء أو إعادة البناء إنما هو ذلك الإنسان المتخلف والمتحلل من المؤهلات النفسية والفكرية التي تجعله جديراً بالاضطلاح مرة أخرى بوظيفته في التاريخ بعد أن كان يوما ما مؤهلاً بفعل التربية القرآنية التي ورثها عن العهد النبوي النموذج وعهد الصحابة الكرام رضي الله عنهم والاتباع رضي الله عنهم. ولن يرتقي الإنسان المسلم المعاصر إلى هذا المستوى السامق الذي يؤهله لهذه الوظيفة النبيلة، إلا إذا أعيد تكييف هذه المؤهلات النفسية والفكرية وتأهيلها للاضطلاح بمقتضيات هذه الوظيفة التاريخية النبيلة.

الحضارة ظاهرة دورية لها مقتضياتها التربوية؛

من القضايا الأساسية التي يسجلها تاريخ مجتمع إبان ميلاده هو أن الميلاد بوصفه حدثا تاريخيا إنما يبدأ عندما يتم تركيب معادلة الإنسان المتكامل (Integrated Man)⁽³³⁾ أو بتعبير آخر، الفرد المكيف (Conditioned Individual)⁽³⁴⁾ أو الشخص (Person)⁽³⁵⁾ في اصطلاح مالك بن نبي، كما تمّ بيان ذلك في «ميلاد مجتمع»⁽³⁶⁾. وهذا النوع من التركيب إنما هو الذي ينبثق منه مشروع المجتمع التاريخي المتحضّر⁽³⁷⁾. ويوضّح مالك بن نبي ظاهرة التركيب هذه بالتأكيد على أن نقطة البدء للتشكّل الجنيني للمجتمع في التاريخ تتقاطع -في الزمن- مع ظهور فكرة دينية يتخذها الناس بمثابة الفكرة الدافعة⁽³⁸⁾ (Idée Force) أو العامل الذي يؤلف بين عناصر هذا التركيب. غير أن هذا التركيب الذي يتمخض عن ظاهرة تسمى الحضارة إنما يتخذ شكل دورة تاريخية ذات ثلاث مراحل هي مرحلة الميلاد وامتدادها الروحي،

(٣٣) أهم ما يميّز به الإنسان المتكامل في نظر بن نبي قدرته على تطبيق مواهبه في التراب مستخدما في ذلك الوقت الذي وهبه إياه الخالق سبحانه وتعالى وهذا هو التركيب الذي نغنيه هنا.

(٣٤) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص:

(٣٥) المرجع السابق.

(٣٦) انظر تحليل مفهوم «الإنسان» عند الحديث عن المفاهيم المفتاحية لتناول الفكر التربوي عند مالك بن نبي كما هي مبينة في الفصل الأول من دراسة لكاتب هذا المقال تحت عنوان «مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي».

(٣٧) يميز مالكن بن نبي بين نوعين من المجتمعات، المجتمع الطبيعي الساكن والمجتمع التاريخي المتحرّك. وللتوسّع انظر: ميلاد مجتمع، الفصلين الأول والثاني.

(٣٨) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص: ٥٣

ومرحلة الأوج وامتدادها العقلي، ومرحلة الأفول وامتدادها الغريزي⁽³⁹⁾.

وبناءً على هذا، فكل مجتمع يمرّ عبْر هذه المراحل الثلاث. وبعبارة أخرى، كل مجتمع يعيش أثناء وجوده التاريخي إحدى هذه المراحل الثلاث. كما أنه تسبق هذه المراحل وضعية تاريخية أخرى يسمّيها مالك بن نبي مرحلة ما قبل الحضارة (Pre-civilization)؛ كما تعقبها أيضاً بعد الأفول وضعية تاريخية أخرى يسمّيها مرحلة ما بعد الحضارة (Post-civilization). وبطبيعة الحال كما سوف نشير إلى ذلك، أن لكل مرحلة خصائصها التي تميّزها عن غيرها، وبالتالي لها مطالبها ومقتضياتها. الأمر الذي يجعل التفكير في أي محاولة للبناء أو إعادة البناء مشروعاً يحمل عوامل الفشل في ذاته إذا تمّ بمعزل عن مراعاة هذه الاعتبارات. إنَّ أيَّ محاولة لبناء الفرد أو المجتمع لا مناص لها من مراعاة هذه الحقيقة التاريخية وذلك بالتحديد الدقيق لطبيعة المرحلة التاريخية التي يشهدها المجتمع والمقتضيات المنهجية التي تتطلبها. إذ «من أعظم زيفنا وتكبُّنا عن طريق تاريخنا أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا. ولعلَّ أكبر أخطاء القادة أنهم يسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية. ومن هنا تبدأ الكارثة، ويخرج قطارنا عن طريقه ليسير خبط عشواء»⁽⁴⁰⁾.

من هنا، كان من أهم أسباب الفشل الذي منيت به مختلف المحاولات التي شهدناها ونشهدها في العالم الإسلامي أنها كانت تفتقر إلى خاصية الأصالة في التفكير والنظر في المشكلات وطرق علاجها؛ وأننا في أغلب الأحوال نذهل عن طبيعة المرحلة التاريخية التي نشهدها من وجهة نظر حضارية ومقتضياتها المنهجية. ذلك لأنَّ كل مرحلة لها طبيعتها الثقافية والتربوية الخاصة بها. ويتأكد الأمر إذا كنّا بصدد نقل تجربة أجنبية ولو كانت ناجحة في موطنها الأصلي، فليس بالضرورة أن تتوفّر لها فرص النجاح نفسها في البلاد التي ننقلها إليها. ولا ينبغي أن يذهب بنا الفهم هنا إلى أننا نعني بذلك ما له علاقة بالاقتصاد أو التكنولوجيا فقط؛ بل الذي نعنيه هو كل ما له علاقة بمشكلات البناء، ولعلَّ المشكلة التربوية تحتلّ موقعاً خاصاً في هذا المجال. ذلك أنَّ البناء الحضاري لأيّ مجتمع، إنَّما ينطلق بشكل صحيح إذا ما تمّ تركيب معادلة الإنسان المتكامل بشكل محكم. وهل تركيب هذه المعادلة ليس إلّا مشروعاً تربوياً متكاملًا يستهدف بناء الإنسان المؤهّل للاضطلاع بمهامه التاريخية على طريق العودة إلى التاريخ الذي خرجنا منه بعد أن اضمحلَّ هذا التركيب ذاته واسترجع الفرد الخام - الغريزي - حريته ولم يعد السلطان الذي يتحكّم في السلوك البشري ويوجّهه هو الدين وإنَّما هو الغريزة من حيث هي الطاقة الحيوية الخام التي تدفع الإنسان لممارسة حياته على أساس مبدأ المحافظة على

(٣٩) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: ٥٤، وشروط النهضة، ص: ٧٣.

(٤٠) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: ٥٢.

النوع والاستجابة لمطالب الجسد بدلاً من إقامة الحياة على أساس المبدأ الرسالي الذي يضيف معنى على حياة الإنسان وينمي عمره وبياركه ويزكيه.

ولهذا، فحرّي بكل مجتمع عزم على الإقلاع الحضاري أن يقف وقفة تأمل يصارح فيها ذاته ويتعرّف فيها على طبيعة المرحلة الحضارية التي يشهدها ويحدّد فيها موقعه فيها وموقفه منها وما هي مطالبها حتّى إذا ما عزم على السير يكون قد وضع خطاه على قاعدة صلبة من الوعي البصير والفهم الصحيح لطبيعة المرحلة ومقتضياتها بما ييسّر الإقلاع الحضاري السليم الذي تتحقّق به طموحات المجتمع في التخصّص والازدهار والنمو عبر توفير الشروط الضرورية لذلك. وفي الفقرات الآتية تفصيل لطبيعة كل مرحلة ومقتضياتها التربوية.

الطبيعة الثقافية للدورة الحضارية أو مسألة الخصوصية الثقافية للأمة الإسلامية:

كل أمة لها دورتها الحضارية الخاصة بها. كما أنّ المشكلات المنبثقة من السياق التاريخي لهذه الدورة لها طبيعتها الثقافية والاجتماعية الخاصة بها أيضاً. وبناءً على هذا، فإنّ مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة في العالم الإسلامي برمتها لها طبيعتها الخاصة المتعلقة بطبيعة الدورة الحضارية الإسلامية ذاتها على خلاف مشكلات الكيانات الحضارية الأخرى في العالم. من هذا الأساس، انطلق مالك بن نبي في صياغة الإطار المنهجي الذي يمكن، في نظره هو على الأقل، أن يساعد المسلمين على التحكم في آليات النظر السليم في مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة المطروحة عليهم وصياغتها بشكل صحيح. فهو يقول في هذا السياق إنّ "علاج أيّ مشكلة مرتبط بعوامل زمنية نفسية ناتجة عن فكرة معينة في حدود الدورة التي ندرسها. فالفرق شاسع بين مشاكل ندرسها في إطار الدورة الزمنية الغربية ومشاكل أخرى تولدت في إطار الدورة الإسلامية. ولهذا، كما يؤكّد مالك بن نبي، «المشكلة التي أحاول درسها في هذا المؤلف، أي كتاب «شروط النهضة» للحضارة الإسلامية، ليست من المشاكل التي تخصّ عالم 1948 م، بل هي من المشاكل التي تخصّ عالم 1367 هـ. وإنّي لأخشى ألاّ يُعجّب كلامي هذا من ألفوا الاقتناع بالحلول المجريّة في أمة من الأمم... فكل شعب مسلم يعيش في عالم 1367 هـ، أي في نقطة من دورته تنطلق منها الأحداث»^(٤١).

وبهذا، فالنظر في مشكلات المسلمين المعاصرة ينبغي أن يتمّ تناوله برؤية حضارية مستقلة تراعي فيها طبيعة المرحلة الحضارية للأمة وما تتطلبه هذه المرحلة من حلول خاصّة تستجيب للخصوصيات الثقافية للأمة. ونعني بذلك أن تكون هذه الرؤية مستقلة عن الأطروحات المقوّلة

(٤١) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: ٥٣.

التي تريد فرض رؤية جاهرة تستهدف تحريف «المشكلة الإسلامية» عن حقيقتها أو على الأقل تمييعها، وذلك لخدمة مصالح النموذج الغربي الغالب والممثل في القوى العالمية المهيمنة على مقدرات الشعوب المستعمرة والمستضعفة، وسواء أكان ذلك بدعوى العولمة أو نهاية التاريخ أو بدايته.

إنَّ الضرورة قائمة بالحاح لكي نؤصِّل هذه الرؤية في مناهج التفكير عندنا أثناء التعااطي مع المشكلات التي نواجهها، إذ لا مناص لنا من ذلك. وفي اللحظة التي نتخذ فيها ذلك الموقف نكون بذلك «قد وضعنا المشكلة في مكانها من التاريخ؛ ونكون أيضاً قد جعلنا مشكلاتنا في وضعها المناسب وفي الطور الذي تستطيع منه أن تبدأ الحضارة دورها»⁽⁴²⁾ أي، كما سبق أن أكدنا، يصبح حينئذ بإمكاننا أن نحدد النقطة التي نستأنف منه مسيرتنا في التاريخ على طريق استرجاع مكانتنا التي تازلنا عنها وموقعنا الذي ضيعناه ووظيفتنا التي عطَّلناها فيه. ولعلَّ ما يبرِّر أهمية هذا الطرح أنَّ مشكلات الإنسان المجتمع والحضارة أيّاً كانت أعراضها، إنّما تتخذ طابعاً خاصاً ذا علاقة عضوية بالسياق الحضاري والتاريخي الذي نشأت فيه⁽⁴³⁾. إنَّ هذه الإشارة المنهجية من مالك بن نبي ضرورية بل وحاسمة لضمان أصالة وفعالية أية محاولة في هذا المجال، وينبغي أن ينتبه إليها كل من ينتمي إلى مؤسسات القيادة الفكرية والسياسية لبلاد العرب المسلمين، القائمين على أمر التنظير لمناهج تناول المشكلات، ورسم الخطط للتعااطي معها صياغة وتحليلاً وتفسيراً وعلاجاً. وإلاَّ فإن المراوحة وسط السياسات العقيمة تبقى هي سيدة الموقف والنتائج معروفة سلفاً، فقد جرَّبنا في العالم الإسلامي اللهاث خلف ما أنتجه الآخرون وجرَّبوه ونجحوا في تجربتهم غير أنَّنا لم نصل بذلك إلى شيء ساهم في إخراجنا من وضعية التخلف والانحطاط إن بلغة الأفكار وإن بلغة الأرقام.

المرحلة الحضارية التي تشهدها الأمة الإسلامية أو أهمية تحديد موقعنا في التاريخ؛

سبقت الإشارة أثناء الحديث عن الظاهرة الدورية في الحضارة أنَّ الدورة عبارة عن مراحل متعاقبة، وأنَّ كل مجتمع يشهد أثناء وجوده التاريخي إحدى هذه المراحل. وباعتبار أنَّ لكل مرحلة خصوصياتها، فإنها تلقي بظلالها على إنسان المرحلة لتطبعه بطابعها وتترك فيه آثارها فيصبح مرآة عاكسة لهذه المرحلة وخصوصياتها الثقافية ومقتضياتها التربوية. من هنا، يصبح من الأهمية بمكان الانتباه إلى ما يميِّز إنسان كل مرحلة من هذه المراحل لنتمكَّن من ثم من

(٤٢) المرجع السابق، ص: ٥٤.

(٤٣) مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ص: ٦٠.

تحديد نقطة الانطلاق في إنجاز مشروع البناء. في هذا السياق يأتي الحديث في الفقرات الآتية عن طبيعة إنسان المرحلة الحضارية ومقتضيات ذلك التربوية.

في هذا السياق نؤكد أن التنظير للتربية يتطلب التمييز بين ثلاث وضعيات تاريخية لا ينفك أن يعيش الإنسان واحدة منها. وكل وضعية من هذه الوضعيات الثلاث إنما تتطلب نوعاً خاصاً من التربية تناسبها من أجل أن تكون تلك التربية في مستوى الاستجابة لمطالبات التفاعل الجاد والإيجابي مع الواقع التاريخي للمجتمع في هذه المرحلة بناء على قانون الحاجة. ولتحديد هذه الوضعيات التاريخية الثلاث، ينبغي الرجوع إلى نظرية الدورة الحضارية التي تتضمن، كما هو معروف، ثلاث مراحل هي الميلاد والأوج والأفول. وكما يشير مالك بن نبي، فإن ثمة وضعيتين أخريين تتعلقان بذات الدورة هما مرحلة ما قبل الحضارة ومرحلة ما بعد الحضارة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وبناءً على هذا التفصيل، يمكن ضبط الخصائص التربوية لشخصية إنسان كل مرحلة من هذه المراحل ليتم بعد ذلك تحديد نوع التربية المناسبة له، ومن ثم التفكير في الصيغ والآليات التي ينبغي اتباعها في بناء وتصميم المنهاج التربوي اللازم لذلك. ولهذا، فثمة فرق بين إنسان ما قبل الحضارة وإنسان الحضارة بمراحلها الفرعية الثلاث، وإنسان ما بعد الحضارة. وفيما يأتي عرض مختصر لطبيعة الإنسان في كل مرحلة.

إنسان ما قبل الحضارة:

هو الفرد الخام (Raw Individual) في حالة الفطرة مع جميع غرائزه كما خلق بها؛ فهو الإنسان الطبيعي (Homo Natura) أو إنسان الفطرة الذي ستتولى الفكرة الدينية إخضاعه لعملية تكييف شرطية ليس من شأنها القضاء على الطاقة الحيوية أو بتعبير آخر، الغرائز، وإنما تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية. فهذا الإنسان في حالة سابقة للحضارة، غير أنه مستعد للدخول في دورة حضارية جديدة بناء على المؤهلات الطبيعية الخام التي تتطوي عليها شخصيته. كذلك كان الشأن بالنسبة "لهؤلاء البدو المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم"⁽⁴⁴⁾ حيث كانوا في قمة الاستعداد لخوض تجربة حضارية جديدة.

ناقش كثير من علماء الإسلام هذه الظاهرة عندما تعرضوا لأسباب اختيار الله سبحانه وتعالى الجزيرة العربية مهبطاً لخم النبوة وخطابه الأخير للبشرية⁽⁴⁵⁾. فقد أكد محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى، مبرراً الاختيار الإلهي للجزيرة العربية مهبطاً للوحي الخاتم

(٤٤) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: ٧٨.

(٤٥) انظر على سبيل المثال: محمد الغزالي، «فقه السيرة»، أبو الحسن الندوي، «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، محمد سعيد رمضان البوطي «فقه السيرة».

للنبوات، أنَّ جزيرة العرب قد تميزت عن غيرها من البقاع في تلك الفترة بصفات لم يكن من السهل العثور عليها في بقاع أخرى من الأرض. ومما جاء في توضيحه لهذه الحقيقة التاريخية التي ميّزت العرب عن غيرهم أنَّ «العرب كانت طبائعهم أشبه ما تكون بالمادة الخام التي لم تنصهر بعد في أي بوثقة محوّلة، فكانت تتراعى فيها الفطرة الإنسانية السليمة، والنزعة القوية إلى الاتجاهات الإنسانية الحميدة، كالوفاء والنجدة والكرم والإباء والعفة. إلّا أنَّه كانت تعوزهم المعرفة التي تكشف لهم الطريق إلى كل ذلك. إذ كانوا يعيشون في ظلمة من الجهالة البسيطة والحالة الفطرية الأولى، فكان يغلب عليهم بسبب ذلك، أن يضلّوا الطريق إلى تلك القيم الإنسانية فيقتلوا أولادهم بدافع الشرف والعفة، ويتلفوا الأموال الضرورية بدافع الكرم، ويشيروا فيما بينهم المعارك بدافع الإباء والنجدة»⁽⁴⁶⁾. وهكذا، فإنَّ إنسان الفطرة ليس أقل من المادة الأولى التي تنتظر الاستثمار وفق رؤية فكرية يتجسّد من خلالها مشروع تربوي يتبنّاه المجتمع في مرحلة من مراحل تاريخه تتحقّق من خلاله طموحاته في التاريخ.

إنسان الحضارة:

بعد إنجاز عملية التكيف (Adaptation) والإشراط (Conditioning) التربويين التي يفترضُ منها تأهيل الفرد للاندماج (Integration) في المجتمع واستئناف وظيفته التاريخية، يكون قد استكمل مواصفات الإنسان المتكامل الذي يرى مالك بن نبي أنه هو الذي يبدأ به التاريخ أي الدورة الحضارية الجديدة. فالإنسان المتكامل، كما يؤكّد مالك بن نبي، هو الذي «يسعى دوماً للمطابقة بين جهده وبين مثله الأعلى وحاجاته الأساسية، والذي يؤدّي في المجتمع رسالته المزدوجة، بوصفه ممثلاً وشاهداً»⁽⁴⁷⁾. فهو بهذا الاعتبار الغاية القصوى لعملية إعداد الإنسان وتأهيله لوظيفته التاريخية؛ إذ لن يصبح مؤهلاً لهذه الوظيفة إلا إذا استكمل مواصفات الإنسان المتكامل. ولعلَّ أهم ما يمكن الاهتداء إليه من خلال التأمل فيما نقلناه عن مالك بن نبي أمران أساسيان. أمّا أوّلهما فهو قدرته على المطابقة بين المثل الأعلى والجهد. ومعنى ذلك أنَّ قضية النموذج التربوي المنشود ليست مطروحة كمشكلة بل كفكرة واضحة تنتظر التطبيق. الأمر الذي يصبح الفرد فيه قادراً على تجسيد معاني هذا النموذج، لكل من الفرد والمجتمع، في حياته العملية كمساهمة لجعل النموذج موجوداً بالفعل لا بالقوة. وأمّا ثاني الأمرين فهو القيام بوظيفة الشهادة كما أقرّها الوحي وبيّنتها السنّة النبوية لمطهّرة. وهذا في الحقيقة مبني على الأوّل أي، لا يكون الإنسان مؤهلاً للقيام بوظيفة الشهادة إلا إذا استوفى شروطها. ولعل من أهم شروطها أن يكون بشخصيته التجسيد العملي لنموذج الإنسان المتكامل. وغني عن

(٤٦) محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، ص: ٣١.

(٤٧) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: ٣٢.

البيان أنّ وحدة المجتمع المتحضّر هو الإنسان المتكامل أو الفرد المكيف أو الشخص. وهنا نرى من المناسب طرح السؤال الآتي: ما مدى اهتمام السياسات التربوية في العالم الإسلامي بطرح مشكلة النموذج التربوي المنشود وفقاً للطبيعة الرسالية للأمة التي ننتمي إليها ومقتضيات الوظيفة التاريخية المنوطة بها؟. وبعبارة أخرى، ما مدى اهتمام منظري التربية عندنا بمشكلة النموذج التربوي للفرد المنشود باعتباره الإنسان المتكامل المؤهل للعودة إلى التاريخ والمساهمة في صناعته؟ بما يمكن البشرية من الاهتمام إلى الأصل الذي أوجدتها الإرادة الإلهية من أجله، أي إقامة حضارة إنسانية ترسخ مبدأ التكريم والتفضيل الربّاني للجنس البشري على سائر المخلوقات.

إنسان ما بعد الحضارة:

هو مصدر المشكلات المتنوعة التي تطلّ المجتمع باعتباره إنساناً متحللاً قد تفسّخ حضارياً وسُلبت منه الحضارة، ولم يعدّ بحكم ذلك قابلاً لإنجاز أي فعل حضاري إلا إذا تغيّر هو نفسه وأعيدت صياغة شخصيته من جديد. وبحكم أنّه يجسّد إنسان المشكلة لا الحل، فهو أقرب إلى إرباك أي مشروع يستهدف إعادة بناء الحضارة من جديد إلى حين تتمّ عملية تكييفه تربوياً مرّة أخرى ليصبح مؤهلاً للمهام التاريخية الكبرى. ولعلّ تعثر مختلف مشاريع مرحلة ما بعد الاستقلال مهما كانت مسمّياتها، البناء والتشييد، النهوض الإصلاح، إعادة البناء، الإنعاش وغيرها، على الرغم من كل الأموال التي يتمّ رصدها لذلك، تفسّر أهمية الانتباه إلى هذه المسألة. من هنا، فإنّ إعادة تربية الإنسان المتخلف تشكل في ذاتها تحدياً مهماً لمشروع النهوض وإعادة البناء⁽⁴⁸⁾. والسبب في ذلك هو أنّ إنسان ما بعد الحضارة قد سبق له أن أنجز وظيفته التاريخية فهو يشبه في حالته هذه الماء الذي تمّ استخدامه في عملية كيميائية تسبّبت في تحلله إلى عناصر لا تربط بينها أية علاقة عضوية تعطي معنى لتركيب كيميائي يسمّى الماء. فهو إذن، إنسان متحلّل من أهم المكونات التي تضمن له الفعالية في الحركة إلا إذا أعيد تركيب هذه المكونات من جديد ليصبح إنساناً متجدّداً ينطوي على مؤهلات النجاح في القيام بالوظيفة التاريخية المنوطة به. ولعلّ هذا هو السبب الذي جعل مالك بن نبي يؤكّد حاجة الأمة الإسلامية إلى ما أسماه في كتابه «تأمّلات»: الإنسان المتجدّد. كما ناقش أيضاً في المعنى نفسه، أهمية التمييز بين التجديد والتجدّد في كتابه «وجهة العالم الإسلامي»، باعتبار أنّ التجدّد هو «تجدّد النفس الذي هو جوهر النهضة»⁽⁴⁹⁾..

(٤٨) مالك بن نبي، تأملات، ص: ٢٥.

(٤٩) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: ١٥٧.

ولعلّ من أهم النتائج التي نتوصّل إليها من خلال استعراض الوضعيات التربوية المختلفة التي يمكن أن يكون عليها الإنسان في مرحلة من مراحل وجوده التاريخي، أنّ التنظير لتربية الإنسان وإعداده لمهامه التاريخية الكبرى ينطلق من النظر في طبيعة المرحلة التاريخية التي يعيشها والوضعيات التربوية التي يكون عليها وتجلياتها على مستوى التفكير والنظر، والشعور والتصرّفات والأعمال. إذ لا يمكن أن نشرع في تربية إنسان لا ندرك طبيعة الوضعيات التي يعيشها. فماذا يكون مبرر وجود العلم إذا لم يكن مشروع تغيير واقع أو الاستعداد لمواجهة متوقع؛ وهو الذي يفترض منه أنّه ينطلق من الواقع ثم يعود إليه ليغيّره نحو الأفضل من خلال علاج مشكلاته المختلفة. وإذا كان النموذج التربوي المنشود (The Desired Model Of Man) هو نقطة النهاية التي تتجه إليها الجهود التربوية من أجل تجسيدها على أرض الواقع، فإنّ النموذج التربوي الموجود (The Actual Model Of Man) هو نقطة البداية التي ننطلق منها لتناول المشكلة التربوية، صياغةً وتحليلاً وتفسيراً وعلاجاً على طريق تحقيق النموذج التربوي المنشود.

وفي هذا السياق تطرح مشكلة استعارة الخبرة الأجنبية ومحاولة الاستفادة من تجارب الغير تحت أي مبرّر من المبررات، إذ ينبغي الانتباه إلى أنّ نجاح تجربة ما في بلد ما نشأت فيه، لا يعني بالضرورة نجاحها في غيرها من البلاد بحكم الشروط النفسية والاجتماعية والخصوصيات الثقافية التي تتحكّم في طبيعة المشكلة التربوية. ولهذا، يكون لزماً على القائمين على أمر التنظير للتربية في بلاد العرب والمسلمين الانتباه إلى هذه القضية، وأنّ اللجوء إلى الخبرة الأجنبية يكون بالتبع وليس بالأصل لأنّ الأصل هو أنّ طبيعة المشكلة هي التي تحدّد طبيعة العلاج ووسائله وأدواته.

الإنسان المسلم المتكامل الهدف المعياري للتربية أو النموذج التربوي المنشود:

من المحدّدات المنهجية الأساسية التي أكّد مالك بن نبي على أهميتها مراعاتها كلما كان ثمة محاولة لصياغة مشروع النهوض في العالم الإسلامي وخاصة في مرحلة ما بعد الاستقلال، اعتبار أنّ الإنسان المسلم المتكامل هو النموذج التربوي للفرد المنشود (The Desired Model of Man) أو الهدف الذي ينبغي على التربية عندنا أن تجعله محور اهتمامها وغاية جهودها من أجل تحقيقه على أرض الواقع. «فالتاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دوماً بين جهده وبين مثله الأعلى وحاجاته الأساسية والذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة بوصفه ممثلاً وشاهداً»⁽⁵⁰⁾.

وإذا كان الإنسان المسلم المتخلف هو العنصر الأساس الذي ينبغي التركيز عليه أثناء دراسة أزمة الحضارة في العالم الإسلامي لصياغة مختلف مشكلاتها باعتباره أصل كل مشكلات الحضارة الإسلامية، فإنَّ الإنسان المسلم المتكامل هو النموذج التربوي المنشود الذي ينبغي أن تتَّجه إليه كل الجهود وأن تستثمر من أجل تحقيقه كل الثروات. ولعلَّه ليس من قبيل المبالغة القول إنَّ غموض النموذج التربوي المنشود، ناهيك عن غيابه من سلم اهتمامات القائمين على أمر المنظومات التربوية عندنا هو الأصل في اضطراب مخرجات العمل التربوي (Educational Outputs) مهما زِيَّت الإحصائيات الفشل الذريع لمختلف مشاريع الإصلاح المتعاقبة أو المتكررة عندنا. فقد قال الإمام شمس الدين بن القيم الجوزية قديماً في هذا السياق أنَّ «الجهل بالطريق وآفاتها والمطلوب يوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة»⁽⁵¹⁾. ويا ليت الأمر كان جهلاً بالنموذج المنشود، ويا ليت جهودنا في العمل التربوي أفرزت لنا الفائدة القليلة. فالقضية التي نحن بصددِها وفي الجرائر مثلاً هي أنَّ «الغموض الذي ساد الانطلاقة الكبرى لإعادة بناء مجتمع ما بعد الاستقلال قد تمخَّض عن أنواع من الأزمات المتداخلة لم تستثن أحداً ولا شيئاً من مقدرات البلاد. كما أنَّه قد تمخَّض عن نوع من التربية لم تؤهِّل الإنسان الجزائري للإسهام الفعلي في مشروع إعادة البناء بشكل يحقق طموحات جيل الثورة في استقلال تام غير منقوص»⁽⁵²⁾. ولعلَّ ما يؤكِّد هذا الزعم إلحاح مالك بن نبي على ضرورة أن تكون لنا فكرة واضحة عن طبيعة النموذج التربوي المنشود للفرد والمجتمع وعن طبيعة العملية التربوية التي تتكفَّل بإنجاز المشروع التربوي وتحقيق هذا النموذج على أرض الواقع من خلاله⁽⁵³⁾؛ باعتبار أنَّ هذه العملية ليست أقل من مشروع ثقافي يستهدف بناء المجتمع المتقدِّم من خلال إعداد الإنسان المتحضَّر الذي يكون نواة مجتمع يُنتظر منه أن يسجِّل حضوره في التاريخ بفعالية واقتدار، بما يساهم به في ترسيخ معاني التكريم الربَّاني للجنس البشري، وبما يضيفه إلى الحياة البشرية من أبعاد عقيدية وروحية وأخلاقية وتكنولوجية ترقِّي هذه الحياة وتركيها وتباركها؛ ومن ثمَّ تؤهِّله لإنجاز الوظيفة التاريخية المنتظر منه أدائها في هذه الحياة إنجازاً ناجحاً. ولا شك في أنَّ رؤية هذه طبيعتها، تساعدنا على إدراك الحاجة إلى التركيز على أهمية البعد الحضاري لعملية التربية؛ باعتبارها فعلاً منهجياً راقياً يستهدف نقل الإنسان، وهو موضوعها وهدفها وأداتها، من وضعية التخلف إلى وضعية التحضُّر.

(٥١) شمس الدين ابن القيم الجوزية، الفوائد، دار الفكر، دمشق، الجمهورية السورية، ١٩٨٢، ص. ١٧١.

(٥٢) انظر تفصيل هذه الفكرة في الفصل الثالث من دراسة لصاحب هذا المقال وفي سياق الحديث عن الحاجة إلى الرؤية الواضحة للنموذج المنشود من مشاريع البناء لما بعد الاستقلال، عنوان الدراسة هو: «مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي».

(٥٣) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: ٧٨.

غير أنه أمام التحديّات العالمية المتجدّدة والمتزايدة باستمرار نسمح لأنفسنا بأن نمضي أبعد من مجرد التنبيه إلى أهمية وضوح النموذج التربوي الذي ينبغي أن تتبنّاه سياساتنا التربوية لنضمن لأنفسنا ليس البقاء فقط، بل القدرة على المنافسة أمام نماذج متصارعة بما نقدّمه للعالم من نموذج نعتقد أنه الأجدر بالاتباع. بل نزيد إلحاحاً على ضرورة صياغة النموذج التربوي الذي يتوفّر على مواصفات الجدارة ليس لمجرد الحضور في التاريخ بل المساهمة في صناعتها كما كان الشأن مع أجدادنا العظام. ذلك أنّ الحضارة بمعناها العام هي تجربة بشرية استطاعت أن تصوغ نموذجاً بشرياً ومجتمعياً للحياة، تسعى لتقديمه للآخرين بعد أن أثبت بإنجازاته أنه الأجدر بالاتباع⁽⁵⁴⁾؛ وعلى أنه في مستوى المساهمة في علاج مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة.

ملاحظات ختامية:

انصب اهتمام هذه الدراسة على بيان المنظور المنهجي الذي تبناه مالك بن نبي في تناول مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة في بلاد العرب والمسلمين. من خلال استعراض أهم مفاصل هذا المنظور المنهجي المتميّز، تبين لنا أهمية المنهج في التوصل إلى صياغة الرؤى الضرورية للنظر السليم في مختلف المشكلات التي تواجهنا. انطوى هذا المنظور على مجموعة من المحدّدات المنهجية التي تشكّل باجتماعها إطاراً منهجياً يساعد الباحث على ما يمكن أن نسمّيه الانضباط المنهجي. أهم ما تميّز به هذا المنظور، الالتزام بالرؤية السننية لأحداث التاريخ وتطوّراتها. إنّ مراعاة هذه الرؤية أمر لازم للبحث في مثل هذه القضايا. من هنا، أصبح لزاماً على كل محاولة تروم النظر في مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة في بلاد العرب والمسلمين أن تتضبط بهذه الرؤية السننية التي تقتضي بأنّ الأصل في الدراسات هو الالتزام بالمنهج قبل التعامل مع الوقائع التاريخية من حيث أنّ التاريخ هو ثمرة تفاعل الجهد البشري مع قانون السنن الذي أودعه الله عزّ وجلّ في الأنفس والآفاق. إنّ الالتزام بهذه الرؤية السننية مكّننا من التوصل إلى فهم مجموعة من القضايا التي نرى ضرورة مراعاتها والانتباه إليها كلما كانت هناك محاولة للنظر في مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة في بلاد العرب والمسلمين. من أهم هذه القضايا نذكر ما يأتي:

إن التسليم بقانون الدورة الحضارية يقتضي منا توحيد الرؤية الفكرية والإطار المنهجي للذين ننطلق منهما في تناول مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة في بلاد العرب والمسلمين.

(٥٤) نصر محمد عارف، الثقافة، الحضارة، المدنية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، أمريكا، ١٩٩٥، ص: ٣٨.

إن اعتبار الإنسان هو الأصل في الحركة التاريخية التي ينجزها أيّ مجتمع في مرحلة من مراحل تاريخه الطويل تقتضي منّا إعادة ترتيب سلّم أولويات اهتماماتنا الفلسفية والسياسية والتربوية لعلاج مشكلات ما بعد الاستقلال.

الطبيعة الثقافية للدورة الحضارية تقتضي منّا الحسم في مسألة الضوابط المنهجية لاستعارة الخبرة التربوية لعلاج مشكلة الإنسان باعتباره جوهر المشكلة الحضارية.

اعتبار الإنسان المسلم المتخلف العامل المركزي في مشكلة الحضارة في العالم الإسلامي.

إن اعتبار الحضارة ظاهرة دورية يقتضي منّا التفكير في صياغة من الضوابط الفكرية والمنهجية التي تمكّنا من التمييز بين الإنسان الافتراضي والإنسان الواقعي.

أولاً: المصادر:

1. مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق، الجمهورية العربية السورية، 2002.
2. -----، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، الجمهورية العربية السورية، 2000.
3. -----، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، الجمهورية العربية السورية، 2002.
4. -----، تأملات، دار الفكر، دمشق، الجمهورية العربية السورية، 2000.
5. -----، ميلاد مجتمع، دار الفكر، دمشق، الجمهورية العربية السورية، 2002.
6. -----، المسلم ومشكلة الإنسان المعاصر، مخطوط، نُشر في موقع الشهاب للإعلام بتاريخ 28 يوليو 2005، <http://www.chihab.net>.
7. -----، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، الجمهورية العربية السورية، 2002.
8. -----، المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، دمشق، الجمهورية العربية السورية، 2002.

ثانياً: المراجع

1. ابن القيم الجوزية، شمس الدين، الفوائد، دار الفكر، دمشق، الجمهورية العربية السورية، 1982.
2. البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة، مه موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، الجمهورية العربية السورية، 1991.
3. بريون، فوزية، مالك بن نبي، عصره وحياته ونظريته في الحضارة، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2010.
4. الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، 1982.
5. عارف، نصر محمد، الثقافة، الحضارة، المدنية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، أمريكا، 1995.
6. الميلاد، زكي، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، دار الصفوة، بيروت، لبنان، 1992.
7. الندوي، أبو الحسن، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، الطبعة الأولى، مؤسسة دار الكلام، دمشق، الجمهورية العربية السورية، 1999.
8. نقيب، عمر، سؤال المقاربة في المشروع التربوي الوطني في البلاد العربية، الملتقى الدولي الأول حول التربية في الوطن العربي، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر. 2013.